

دراسة المعنى عند البلاغيين في ضوء الدراسات الحديثة

الدكتور عبد العليم بوفاتح

أستاذ الدراسات اللغوية

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة الأغواط

لقد عني البلاغيون منذ القديم بالمعنى عناية كبيرة إلى حد أنهم جعلوه أقساماً كثيرة واختلفوا في عددها، فقد ذهب بعض القدماء إلى أن أقسام المعاني " تخرج إلى ما لا يحصى عدداً ولا يدرك مدداً. وقد جعلها بعضهم ألوفاً، وجعلها بعضهم مئين، وجعلها آخرون عشرات، وجعلها بعضهم أحاداً تسعة وسبعة، وستة، وخمسة، وثلاثة. وقال آخرون: هي ضربان: خبرٌ وغير خبر. وكفاك منها صاحب التسعة، وهي: الخبر والاستخبار والأمر والنهي والنداء والتمني والدعاء والقسم والوعيد.. " (141)

وقد انصبَّ اهتمام البلاغيين على البحث في شأن المعاني منذ العصور الأولى، وهم يلتقون مع النحاة في جوانب كثيرة من دراسة المعنى " والناظر إلى كلام القزويني يجد أنه يضع مباحث علم المعاني في نطاق إسناد الجملة، وعلاقاتها الداخلية والخارجية، وأساليبها، وهو كلام لا يبعد بالمعاني عن النحو. " (142)

ولم يقتصر اهتمام أهل البلاغة قديماً على النص وما يحمله من المعنى بمعزل عن التأثيرات المختلفة التي ينتج عنها هذا المعنى، فجاء كلامهم عن المتكلم والمخاطب على اعتبار أن التواصل لا يتم إلا بمراعاة أحوال كل منهما. فهذا الجاحظ يقرر أن " مدار الأمر على البيان والتبيين، والإفهام والتفهم. وكما كان اللسان أبين كان أحمد، كما أنه كلما كان القلب أشد استبانة كان أحمد. والمفهم لك والمتفهم عنك شريكان في الفضل، إلا أن المفهم أفضل.. " (143)

لقد أثار الجاحظ قضية لطالما أثارها المحدثون وانقسموا فيها فريقين: فريقاً يرى ضرورة مراعاة آليات التلقي والاهتمام بحال المتلقي ؛ وفريقاً يرى ضرورة الاهتمام بأوضاع المتكلم. وكلاهما يتهم البلاغة القديمة بتقصيرها في هذين الجانبين، ولا سيما جانب العناية بحال المتكلم. وها نحن نرى الجاحظ يقرر أن المتكلم (المفهم) والمخاطب (المتفهم) هما أساس التواصل. ويدل

عليهما كذلك كلامه عن (اللسان والقلب) من دون أن يهمل الخطاب وما يكون عليه من البيان. ولو ذهبنا ننتبج إشارات الجاحظ وعباراته في هذا الباب لوقفنا منها على الشيء الكثير.

هذا، وإن ما أورده القزويني وغيره من البلاغيين فيما يتصل بالمعنى، من صدق الخبر وكذبه، انطلاقاً من مطابقته للواقع أو عدم مطابقته له، يتردد في نظريات الدرس اللغوي الحديث؛ وذلك أنّ " نظرية المعنى عند فتجنشتين: أنّ اللغة وظيفة تصويرية تقريرية تتجه إلى العالم الخارجي، وتحاول رسمه والتعبير عنه، وبالتالي فإن العبارات التي لا تعبّر عن الواقع الخارجي أو التي لا تشير إليه هي عبارات لا معنى لها. وعلى ذلك فالعبارات ذات المعنى يمكن أن تكون صادقة أو كاذبة. أما العبارات التي لا معنى لها فليست صادقة ولا كاذبة. وإنما هي مجرد لغو، لأنها لا تشير إلى أشياء الوجود الخارجي، وإنما تشير إلى تخيلات وأوهام.." (144)

ويمكن القول إنّ البلاغيين عموماً قد وجّهوا عنايتهم إلى المعنى أكثر ممّا فعل النحاة، أو لنقل إنّ النظرة النحوية البلاغية لدى كثير من علماء العربية كانت أكثر احتقلاً بالمعنى من النظرة النحوية المحضة لدى آخرين، ذلك أنّ البلاغيين الأوائل ما كانوا إلاّ النحاة، قبل أن تستقل البلاغة عن النحو، بل إنّ من النحاة المتأخرين من بقي على سمت هؤلاء الأوائل الذين كانت نظرتهم نحوية بلاغية تتجلى فيها العناية بالمعنى، يقول أحد الباحثين: " فلن اقتصر اهتمام النحويين على المعنى الظاهر للتركيب اللغوي، فقد غاص البلاغيون إلى معنى المعنى، والمعاني الثواني، وهي معان بلاغية كامنة خلف المعاني الأولية الظاهرة.. فكان هذا المعنى الثاني صيداً ثميناً لعلماء البلاغة في الأساليب العربية، وبخاصة في علم المعاني، فقالوا في أسلوب الأمر إنه خرج إلى معان أخرى، كما قالوا في النهي والاستفهام والنداء مثل ذلك، معتمدين على المعاني الثانية في سياق الأساليب. وكذلك في علم البيان إذ بنوا المجاز والاستعارة والتشبيه والكناية على المعاني الثانية... ولهذا فإنه يتولد من الأسلوب العربي طبقتان من المعاني: طبقة ظاهرة للعيان، يميزها السامع دون أعمال فكر وتأويل، ويفهمها أهل اللغة عامة، وهذا ما يطلق عليه (المعنى الأول) وهو المعنى الظاهر المباشر المفهوم من الكلام، أو ما يسمى بدلالات التركيب الظاهرية. أمّا الطبقة الثانية من المعنى: فهي المخفية خلف الطبقة الظاهرة الأولى، وهي ما يطلق عليه المعنى الثاني، أو معنى المعنى؛ لأن المعنى الأول في السياق يومي إلى المعنى الثاني.." (145)

وهذا ما يظهر بوضوح من كلام الجرجاني إذ يقول: " وإذ قد عرفت هذه الجملة، فهنا عبارة مختصرة وهي: أن تقول المعنى ومعنى المعنى. تعني بالمعنى: المفهوم من ظاهر اللفظ، والذي تصل إليه بغير واسطة. وبمعنى المعنى: أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر كالذي فسرت لك. وإذ قد عرفت ذلك، فإذا رأيتهم يجعلون الألفاظ زينة للمعاني وحلية عليها، ويجعلون المعاني كالجواري، والألفاظ كالمعارض لها وكالوشى المحيّر واللباس الفاخر، والكسوة الرائقة، إلى أشباه ذلك مما يفخّمون به أمر اللفظ ويجعلون المعنى يُنْبَل وَيَشْرَف، فاعلم أنهم يضعون كلاماً قد يفخّمون به أمر اللفظ ويجعلون المعنى [الذي] أعطاك المتكلم أغراضه فيه من طريق (معنى المعنى) فكنتي وعرض ومثل واستعار، ثم أحسن في ذلك كلّهُ، وأصاب ووضع كلّ شيء منه في موضعه، وأصاب به شاكلته... فالمعاني الأول المفهومة من أنفس الألفاظ هي المعارض والوشى

والحليّ وأشباه ذلك. والمعاني الثواني التي يوماً إليها بتلك المعاني، هي التي تُكسَى تلك المعارض، وتُزَيَّن بذلك الوشي والحلي... (146)

ففكرة المعنى ومعنى المعنى، التي أشار إليها الجرجاني، تشمل (المعنى) ويراد به المعنى الأصلي الأول على المستوى اللغوي؛ ثم (معنى المعنى) ويراد به المعنى الفرعي الثاني على المستوى البلاغي والدلالي. فمعنى المعنى إذاً يمثل المستوى البلاغي الفني الذي يكشف عن الجوانب الفرعية لدلالة الكلمات على مستوى التراكيب، أو دلالة التراكيب على مستوى النصوص. وهذه المعاني الفرعية تتوسع لتتجاوز المعاني الأصلية على المستوى اللغوي الأول. وقد اتخذ الدرس الدلالي الحديث هذه الفكرة منطلقاً له في دراسة المعاني وظلالها المختلفة. وقد تناول الجرجاني هذه القضية في مواضع متعددة من الدلائل، منها ما أورده في تعليقه على الكناية في قول الشاعر (147):

وما يك في من عيب فائي * جبان الكلب مهزول الفصيل [الوافر]
إذ قال: "دليل على أنه مضياف، فالمعاني الأول المفهومة من أنفس الألفاظ هي المعارض والوشي والحليّ، وأشباه ذلك. والمعاني الثواني التي يوماً إليها بتلك المعاني، هي التي تُكسَى تلك المعارض وتُزَيَّن بذلك الوشي والحليّ. وكذلك إذا جعل المعنى يُتصوّر من أجل اللفظ بصورة، ويبدو في هيئة ويتشكّل بشكل يُرجع المعنى في ذلك كلّهُ إلى الدلالات المعنوية، ولا يصلح شيء منه حيث الكلام على ظاهره.. (148)" فهو يعالج هذه القضية في مجال دراسة الكناية، وما توحى به من المعاني والدلالات.

وفي موضع آخر يعلّق على ما قاله البلاغيون قبله من أنّ الكلام لا يستحق اسم البلاغة حتى يسابق لفظه معناه، ولا يكون لفظه أسبق إلى سمعك من معناه إلى قلبك.. فيقول: " فهذا مما لا يشكّ العاقل في أنه يرجع على دلالة المعنى على المعنى، وأنه لا يُتصوّر أن يُراد به دلالة اللفظ على معناه الذي وُضع له في اللغة... وإذا كان ذلك كذلك، علّم علّم الضرورة أنّ مصرف ذلك إلى دلالات المعاني على المعاني، وأنهم أرادوا أنّ من شرط البلاغة أن يكون المعنى الأول الذي تجعله دليلاً على المعنى الثاني، ووسيطاً بينك وبينه، متمكناً في دلالاته، مستقلاً بوساطته، يُسفر بينك وبينه أحسن سفارة، ويشير لك إليه أبين إشارة... (149)"

وفكرة المعنى ومعنى المعنى هذه التي أفاض فيها الجرجاني وفصلها في القرن الخامس الهجري، قد اعتبرت في الدراسات اللغوية الحديثة، خطوة مهمة، بل فاتحة عهد جديد في تطور البحث في المعنى والدلالة. (150) وصارت في الدراسات اللغوية الحديثة ذات صلة بعدة بحوث لسانية ودلالية وسميولوجية فيما بعد.

غير أنّ ثمة من يرى أنّ البلاغة العربية تتجاوز فكرة ثنائية المعنى، إذ إنّ كلّ معنى هو أصل قائم بذاته غير تابع لما سواه، أي أنّ " الحقيقة البلاغية في فهم المعنى تنظر إلى كلّ معنى في استخدامه أصلاً من غير تقديم لأصل وإهمال لفرع. إذ المعنى الذي يكون أصلاً في الاستخدام هو الذي يكون له دلالة أخرى في سياق آخر. ولذلك إنّ المعاني في الاستخدام أصل. وهذا يجعلنا ننظر إلى دلالة المعنى على أنها كاملة في كلّ سياق ترد فيه، وفي كلّ استخدام تبرز من خلاله. وهذا ينقلنا

من تفسير قاصر، في أن هذا المعنى مهم عند المتلقي (أ) وأقل أهمية عند المتلقي (ب) وغير مهم عند المتلقي (ج) حتى نخلص من هذا الحكم المتفاوت على المعنى، لدى المتلقين، فإننا نجعل المعنى في كل مرة أصلاً، ويتلون هذا الأصل حسب السياق والوظيفة التي يؤديها منفرداً أو مركباً، وحسب الموقعية التي يكتسب من خلالها الدلالة الإشارية الحقيقية، أو الدلالة المجازية الاصطلاحية الفنية. وإن كانت الدلالات تتوارد على أصل لغوي، وتتفرع إلى جذر اشتقاقي أو استخدام سياقي جديد. فالمعنى في الأصل اللغوي قائم بذاته، كما أن المعنى الجديد في السياق قائم بذاته. وهذا الفهم لنظرية المعنى في البلاغة العربية يلغي قضية الثنائية في المعاني الأوائل والمعاني الثواني، بل كل معنى في موقعه أصل. ويفسر هذا الفهم أن المعنى في التقديم ليس أهم وأفضل من المعنى الذي جاء مؤخراً، بل لكل منزلة وتأثير وبلاغة وتصور. كما أن المعنى الذي يكون مقدراً ومحدوفاً أحياناً ليس بأجمل من المذكور أحياناً، بل الحذف تطلبه الحال، كما أن الذكر تطلبه المقام، والمعنى المقدّر بلاغة، كما أن المعنى المذكور بلاغة، وهذا يندرج على فنون البلاغة ومصطلحاتها من غير تخلف." (151)

لكن العلاقة لا تنفك بين المعنى الأصلي (وهو المعنى اللغوي) والمعنى الفرعي (وهو المعنى البلاغي) وهذه العلاقة قائمة في الأساس على تفرّع المعنى الثاني عن المعنى الأول، وهذا يعني أن الفرع لا يفهم إلا من خلال الأصل، فلا يمكنه إذاً أن يستقل بنفسه، إذ لا يمكن تصوّر معنى سياقي ما إلا باستحضار المعنى الأصلي الذي خرج منه، ثم خرج عنه. وهذا ما يجعل المعنيين متصلين أحدهما بالآخر، ويجعل الفرع في إثر الأصل. غير أن ذلك لا يحدّ من الامتداد الدلالي للمعنى الفرعي، لأنه مرتبط بسياقه، وهذا السياق هو الذي يحدد دلالاته التي عليها الاعتماد في فهم الخطاب وتحقيق التفاهم والتواصل والتبليغ..

فهذه " المعاني الثانية هي التي يأتي بها الأدباء، وهي الأغراض التي يصاغ لها الكلام، فهي منبثقة من نتائجهم الأدبي، وعليها يعول النقاد في التمييز بين الأدباء والشعراء قوة وضعفاً، ونجاحاً وفشلاً، من خلال الأعمال الأدبية، وفن القول بأنواعه، ممتزجة بأحاسيس الأديب أو الشاعر أو المنشئ وعواطفه ووجدانه.." (152)

والواقع أن معرفة ما يحدث أثناء إنتاج أو فهم جملة بسيطة يدل على المعرفة المعمقة بالعمليات الذهنية، على حين تبقى المنطقة الكبرى كالأرض غير المكتشفة. وكل ما نحسن فعله يُعدّ شيئاً كبيراً عندما نقيس المسافة التي تم اجتيازها. (153)

ففي إطار هذه العمليات الذهنية يتم إنتاج اللغة على عدة مستويات، انطلاقاً من المستوى البسيط إلى أعقد المستويات. كما يتم الاحتكام إلى هذه اللغة في تركيبها وما تحمله من شحنات دلالية للحكم على العمل الأدبي وبيان قيمته الفنية. وهذا ما تناوله البلاغيون وتوسعوا فيه. فمن ذلك مثلاً ما أقامه الجرجاني من وصل " بين نظم اللغة وبين المضمون في ترتيبه المنطقي، فوضع للعقل أساساً ومكانة في العمل الفني، تهدي إلى وحدة النسق بما أعطى للفكرة من قيمة نادى بها بعض الفلاسفة حين تصدّوا لتفسير النص القرآني. وعني بالعقل والنفس، فهو يفرق بين هاتين اللفظتين من ناحية الدلالة. فالعقل يقوم بسلامة الإرشاد المؤدّي إلى سلامة المضمون، والنفس هي الوعاء الذي تنقح فيه المعاني انقداحاً مؤثراً في كل من القارئ والسامع..." (154)

وإنّ السير على نهج الذوق مع الاقتدار على التفسير والتعليل يجعلنا " نستفيد من النظرة الجزئية في درس البلاغة العربية، الذي يهتم بالجملة، من غير النظر إلى النص بعمومه، ثم توحد النظر إلى العمل الأدبي بوصفه وحدة واحدة. وهذا يضيء أذهان المحدثين من الدارسين، ويبيح أمامنا إعادة قراءة البلاغة العربية ثانياً من غير تغيير للأصول والأسس، وإنما التوجيه في طرائق الفهم والنقل والشرح، وتقريب الفكرة البلاغية إلى أذهان المعاصرين من غير تنكّر إلى تدرّج الثقافة من جيل إلى آخر، ومن غير إهمال لعوامل الزمان والمكان من عصر إلى عصر آخر. وبهذا نوّكد ذكاء الإنسان وثقافته في كل عصر، مع الاهتمام بأصول التراث، وتقدير جهود القدماء، ومراعاة ثقافة المحدثين وسلاسل تفكيرهم، والمعاني التي يقتنعون بطرائقها ووسائلها المعينة إلى تقريب تجارب السابقين. بهذا نحقق مفهوم التراث والمعاصرة، والخروج من الاتهامات المتكررة لتراثنا البلاغي، بحق وبغير حق، ونستطيع بذلك أن نعدّي الفكر البلاغي القديم إلى الحديث، ونعرف معنى الجديد الذي لا يهدم القديم، والمعاصرة التي لا تتنكر لأصولها وأسسها... " (155)

هذا، وإنّ الاهتداء إلى استكشاف أسرار المعاني والوصول إلى إحياءاتها من خلال التعامل مع مختلف النصوص في مجال النقد يقتضي ضرورة الجمع بين الذوق (الموهبة) والثقافة، إذ " لا غنى لأحدهما عن الآخر.. ولهذا فإنّ صاحب الذوق غير المعلّل لا يفي بإبراز المعنى في البلاغة العربية، ولا يقوم بعملية التوصيل والتبليغ، كما أنّ المعلّل أو المفسّر أو القادر على الشرح للماني من غير ذوق لا يؤثر في غيره، ويبقى حديثه من خلال التراكيب في جفاف وغلظة وعدم رواء أو نضارة وهذا ما جمّد البلاغة العربية في قوالب ومصطلحات، إذ الذين عرضوا لها في تقسيمات صاحبهم التعليل والتفسير والتقسيم من غير ذوق، فكانت البلاغة العربية المتفلسفة...وبالمقابل فالبلاغة العربية التي أشار الدارسون إلى معانيها من غير تعليل أو تفسير، بقيت غير مقنعة للمتلقّي.. ومع ما تقدم فإن نظرية المعنى في البلاغة العربية بحاجة غلة ذوق وثقافة ومعرفة وذكاء. ولذا لا يكفي في الحديث عن المعان في البلاغة العربية أن يكون الدارس ذا ذوق من غير اقتدار على التفسير والشرح والتعليل، ولا يتم النظر إذا توافر للدارس التعليل والتفسير من غير ذوق هاد وموجّه لإبراز المعنى والإعلان عنه.. " (156)

وعلى اعتبار أن البلاغيين كانوا كذلك من النحاة والمفسرين والفقهاء وعلماء الأصول بحكم موسوعيّتهم، فقد امتد اهتمامهم بدراسة المعنى إلى حقول العلوم الشرعية من فقه وتفسير وغير ذلك، إذ " أفادت المعاني في فهم أصول الفقه، ولذلك أعلنوا: أنّ علمي أصول الفقه والمعاني في غاية التداخل؛ فإنّ الخبر والإنشاء اللذين يتكلم فيهما المعاني هما موضوع غالب الأصول، وإنّ كل ما يتكلم عليه الأصولي من كون الأمر للوجوب، والنهي للتحريم، ومسائل الإخبار والعموم والخصوص والإطلاق والتقييد، والإجمال والتفصيل والترجيح، كلها ترجع إلى موضوع علم المعاني، وليس في أصول الفقه ما ينفرد به كلام الشارع عن غيره، إلّا الحكم الشرعي، والقياس، وأشياء يسيرة.. " (157)

ويظهر لنا بجلاء اهتمام البلاغيين بدراسة المعنى من خلال آثار القدماء التي تبرز جهودهم في بيان إعجاز القرآن والبحث في أسرار معانيه، بوساطة التفسير والتأويل من أجل اتلوصول

إلى المعاني المقصودة.. ولم يقتصر هذا التفسير والتأويل على النص القرآني وحده، وإنما شمل النص الشعري كذلك؛ وهو ما نراه جلياً في دراسات القدماء من النقاد.

ومهما كان الاختلاف واقعاً في مفهوم التفسير والتأويل، على أنّ التفسير يتعلق بالرواية وبيان مراد المتكلم، أمّا التأويل فيتعلق بالدراية؛ أو على أنهما واحد، هو كشف المراد عن المشكل. (158) فكلهما منهج من مناهج فهم المعنى عند البلاغيين الذين تصدّوا لتفسير القرآن وبيان مقاصده. وأمّا السبيل في ذلك فهي قواعد النحو وأصوله، وسنن العرب في استعمالها لمختلف التراكيب والأساليب، من غير تجزئة لهذه اللغة المتكاملة. وهذا ما يمكن ملاحظته من الناحية التطبيقية أكثر.

صلة المعنى البلاغي بالمعنى النحوي:

إذا كان المعنى النحوي - كما بيّنا فيما سميّناه (المعنى التعلقي) - يتصل بوظائف الكلم من فاعلية ومفعولية وخبرية وغير ذلك، وأنّ هذه الوظائف تنتج عن اختيار مواقع الكلم، وتعلّقها على ما يوافق القواعد والأحكام النحوية، فإنّ المعنى البلاغي يتجاوز حدود الاختيار الرتبتي الذي يبيّن وظائف الكلم إلى فضاء أرحب من الاختيار، يتمثل في الاختيار الفنّي الإبداعي، بحيث يتم انتقاء كلمات بعينها من دون أخرى، ويتم اختيار سياق بعينه يوجه دلالات التراكم لا للمفردات وحسب. وهذا ما يترجم بما يسمى في البلاغة بالمقام الذي تتحدد على ضوئه أغراض الكلام ومقاصده.

لكن، هل يمكن أن نقرر بأنّ المعنى النحوي هو غير المعنى البلاغي، على الرغم من أنه لا غنى للثاني عن الأول؟ الحقيقة أنّ المعنيين متكاملان لا من ناحية التسلسل فحسب، بحيث يكون المعنى النحوي (الأول) سابقاً للمعنى البلاغي، وإنما يتجلّى هذا التكامل في كونهما يشتركان في المعنى؛ إذ ليس من الصواب القول بأنّ النحو يقف عند حدود الخطأ والصواب في الكلام، لأنّ هذا يجعل النحو مقتصرأ على المستوى الأول؛ بل الصواب هو أن النحو ينبغي أن يتجاوز ذلك إلى النظر في المزايا الأسلوبية للكلام، وما يكتنفه من الأسرار البلاغية، وهو ما أكّد عليه الجرجاني في حديثه عن وجوه الكلام وفروقه ضمن نظرية النظم إذ يمزج بين المعنيين من خلال ربط النحو بالمقاصد والدلالات، فيقول من كلام طويل: "...وذلك أنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك: (زيد منطلق) و (زيد ينطلق) و (ينطلق زيد) و (زيد المنطلق) و (المنطلق زيد) و (زيد هو المنطلق) و (زيد هو منطلق)؛ وفي الشرط والجزاء...وفي الحال..وينظر في الحروف.. وينظر في الجمل التي تسرد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل.. فيضع كلا من ذلك في موضعه، ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له." (159)

يتكلم الجرجاني هنا عن المعاني الناتجة عن تنوعات التراكيب، فيجعل الإعراب تالياً للمعنى، وما فكرة الوجوه والفروق عند الجرجاني إلا تطبيق جلي لما تعارف عليه النحاة من أن (الإعراب فرع المعنى) إذ يتم تحديد الوظائف النحوية الإعرابية انطلاقاً من نية المتكلم وغرضه وقصده من الكلام. وهذا مستوى أول يقرنه الجرجاني بالمستوى الثاني المتمثل في جانب الافتنان والإبداع، إذ يقول معلقاً على أبيات البحري (160) :

[من المتقارب]:

بلونا ضرائب من قد نرى ** فما إن رأينا " لفتح " ضريبا
هو المرء أئذنت له الحادثاً ** ت عزمأ وشكاً ورأياً صليبا

تنقّل في خُلقي سؤدد ** سماحاً مُزجى وبأساً مهيباً
فكالسيف إن جنته صارخاً ** وكالبحر إن جنته مستثيباً

يقول **الجرجاني**: "... فإذا رأيتها قد رافقتك وكثرت عندك ووجدت لها اهتزازاً في نفسك فعُد فانظر في السبب واستقص في النظر فإنك تعلم ضرورة أن ليس إلا أنه قدّم وأخر، وعرف ونكر، وحذف وأضمر، وأعاد وكرّر، وتوخّى على الجملة وجهاً من الوجوه التي يقتضيها علم النحو، فأصاب في ذلك كلّهُ، ثم لطف موضع صوابه، وأتى ما أتى يوجب الفضيلة..." (161)

فالجرجاني كما رأينا يجعل مدار الحسن والجودة في هذه الأبيات على ما فيها من توخّي الوجوه النحوية المترتبة على الفروق الدلالية، وما ذلك إلا من جودة النظم، وما النظم إلا توخّي معاني النحو. وتوخّي معاني النحو ههنا قد تجاوز حدود الوظائف الإعرابية التي رأيناها آنفاً إلى مراتب الفن والإبداع. وكلام **الجرجاني** هنا دليل على اتصال المعنى النحوي بالمعنى البلاغي وتكاملهما. وهذا يعني أنّ المعنى النحوي يرتقي ليشترك مع المعنى البلاغي في التعبير عن مقاصد الكلام وأغراضه.

غير أنّ المعنى البلاغي عند **الجرجاني** لا يكون إلا تالياً للمعنى النحوي، إذ إنّه جعل استحسان الكلام ناتجاً في البداية عن التعريف والتكثير والحذف والإضمار، وما إلى ذلك من صور التراكيب، مما يمكن أن نسميه: (المستوى النحوي) ثم تكلم عن جانب الإبداع في القول، وهو ما يمكن أن نطلق عليه: (المستوى الفنّي) أليس قد قال بعد ذلك: "... فأصاب في ذلك كلّهُ، ثم لطف موضع صوابه، وأتى ما أتى يوجب الفضيلة..."

فالصواب يريد به إصابة المعنى النحوي فيما ذكرنا، وهذا هو المستوى الأول؛ ولطف الموضع ومأنى الفضيلة يريد بهما جودة الكلام ومستواه الفنّي وهو المستوى الثاني. ومن هذا يتضح ما هنالك من صلة بين المستويين. وما أكثر ما نجد لدى **الجرجاني** من الأمثلة من هذا القبيل.

ولكننا عندما نتكلم عن النحو عند **الجرجاني** يجب علينا أن نستحضر ما هنالك من علاقات بين وحدات التركيب، أو لنقل: علينا أن ندرك أنّ ما عناه **الجرجاني** بالنحو ليس هو عين ما عناه كثير من النحاة قبله وبعده، إذ وسّع مفهومه ليتجاوز به المستوى الإعرابي المحض إلى مستوى أبعد منه هو المستوى التركيبي. وعلى هذا فالنحو عند **الجرجاني** مرادف لدراسة التراكيب. ودراسة التراكيب هي موضوع علم المعاني.. ونخلص من هذا إلى أنّ النحو عنده قسيم البلاغة.

بل إننا نجد **الجرجاني** في أكثر من موضع يجمع في كلامه عن معاني النحو بين موضوعات علم المعاني وموضوعات علم البيان كذلك، وذلك من خلال الأمثلة التطبيقية التي يوردها شاهداً على الأحكام التي يتوصل إليها في نظرية النظم. فمن ذلك، مثلاً، تحليله لببيت بشار بن برد: (162)

كأنّ مثار النقع فوق رؤوسنا ** وأسيافنا ليل تهاوى كواكبهُ

إذ يقول **الجرجاني**: " وانظر هل يتصور أن يكون بشار قد أخطر معاني هذه الكلم بباله أفراداً عارية من معاني النحو التي تراها فيها، وأن يكون قد وقع (كأنّ) في نفسه من غير أن يكون قصد إيقاع التشبيه منه على شيء، وأن يكون فكّر في (مثار النقع) من غير أن يكون أراد إضافة الأول إلى الثاني، وفكّر في (فوق رؤوسنا) من غير أن يكون قد أراد أن يضيف (فوق) إلى الرؤوس، وفي (الأسياف) من دون أن يكون أراد عطفها بـ(الواو) على (مثار)، وفي (الواو) من دون

أن يكون أراد العطف بها، وأن يكون كذلك فكّر في (الليل) من دون أن يكون أراد أن يجعله خبراً (كأن)، وفي (تهاوى كواكب) من دون أن يكون أراد أن يجعل (تهاوى) فعلاً للكواكب، ثم يجعل الجملة صفةً لليل ليتّم الذي أراد من التشبيه؟ أم لم تخطر هذه الأشياء بباله إلا مراداً فيها هذه الأحكام والمعاني التي تراها؟ وليت شعري، كيف يتصوّر وقوع قصد منك إلى معنى كلمة من دون أن تريد تعليقها بمعنى كلمة أخرى. ومعنى القصد إلى معاني الكلم أن تُعلّم السامع بها شيئاً لا يعلمه؟ ومعلوم أنك أيها المتكلم لست تقصد أن تُعلّم السامع معاني الكلم المفردة التي تكلمه بها... (163)

فالجرجاني هنا يتحدث عن التعليق القائم بين الكلم، مبيناً أنّ هذا التعليق بدأ في الذهن قبل أن يظهر في الكلام. وقد صرّح بمصطلح التعليق بوضوح، وهو ما يتجلى من خلاله ما يسمى بالعمل النحوي؛ أمّا الذهن فأشار إليه إليه بالخاطر والبال. وعندما يتحدث عن معاني النحو نجده يمزج بين ما يتصل بعلم المعاني وما يتصل بالإعراب وما يتصل بعلم البيان. وعبارته المتكررة عن التشبيه واضحة لا تحتاج إلى تعليق؛ أمّا الإعراب فيدل عليه كلامه عن الإضافة والعطف وخبر (كأن)؛ وأمّا ما يتعلق بعلم المعاني فيدل عليه هنا كلامه عن المجاز العقلي (الإسنادي) في نسبة فعل التهاوي للكواكب، كما يدل عليه كلامه عن المعاني والأغراض التي أرادها الشاعر.. وهذا كلّ، وغيره كثير في الدلائل، دليل على أنّ **الجرجاني** عندما يتحدث عن المعاني لا يقف عند حدودها النحوية وحسب، وإنما يتجاوز ذلك إلى المعاني البلاغية التي تستفاد التعليق النحوي، أو من باقي الأبواب البلاغية كما رأينا في علم البيان عموماً، وفي المجاز على الخصوص. وهذا دليل على قوة الارتباط بين المعنيين: النحوي والبلاغي.

فكما يتعاقب المعنيان: النحوي والبلاغي على مستوى علم المعاني، يتعاقبان كذلك على مستوى علم البيان. وبذلك تكون المزية الفنية للكلام (على المستوى الثاني) متأتية له من طريق التشبيه أو المجاز أو الاستعارة أو الكناية، وما يتصل بها من مباحث البيان. غير أنّ هذا التوسع في المعاني لا ينفصل عن المعنى النحوي في المقام الأول. إذ لا سبيل إلى كلام فنيّ يرتقي إلى مراتب الحسن والجودة ما لم يراع في هذا الكلام ما يبنى عليه من المعنى النحوي. ويكون ذلك في باب ما يسمّى بالعدول أو الانحراف أو ما يسمّى في الدراسات الأسلوبية بظاهرة الانزياح، وهو خروج الكلام عن التعبير اللغوي المألوف، ليكتسب الخطاب مزايا تعبيرية وقيماً فنية، انطلاقاً من اختيارات المتكلم ومقامات الكلام.

وهذا ما يعني أنّ المعنى البلاغي في مجال علم البيان ينطلق من المعنى النحوي ثم يتجاوزه إلى آفاق رحبة تجعل المعنى المجازي شبيهاً بالمعنى الأصلي. لكن هذا العدول عن الأسلوب المألوف، مهما كان أثره، لا يمكن أن ينفصل عن أصل المعنى في تقدير المتكلم والمخاطب على السواء، فكل انحراف له أصل في الكلام يرجع إليه.

والمعنى البلاغي ناتج من التعبير عن مشاعر النفس ومقاصدها، وعلم المعاني هو المسلك الذي يتم من خلاله ترجمة هذه المشاعر والمقاصد، ذلك أنّ " المعاني التي ذكرها البلاغيون هي المعاني التي تجول في النفس، ولذلك جعلوا علم المعاني قبل علمي البيان والبدیع؛ وتعليلهم في ذلك التقديم: أنّ علم المعاني كالأصل للفرع. " (164)

وعلم المعاني كما ورد عند **الطبيي**، فيما أورده البهاء **السبكي** في عروس الأفراح: " يبحث عما يعرف منه كيفية تأدية المعنى باللفظ؛ وعلم البيان يبحث عما يعلم منه كيفية إيراد ذلك المعنى في

أفضل الطرق دلالة عقلية." (165) ولهذا فالمعنى عند البلاغيين معنيان: نفسي وبارز قائم باللفظ (166)؛ ولذلك قالوا: " لا نعرف حدّ المعاني حتى نعرف تراكيب البلغاء، ولا نعرف تراكيب البلغاء حتى نعرف البلاغة." (167)

وفي كل حالات المعنى النحوي والمعنى البلاغي وأوضاعهما نلاحظ أنّ الذي يجمع بينهما إنما هو المقام ومقتضى الحال. إذ لا يكون التوكيد أو الإثبات أو النفي أو النهي أو التعجب أو الذكر أو الحذف أو التعريف أو التنكير أو التقديم أو التأخير، أو غير ذلك من أوضاع الكلام إلاّ بما يوافق المقام والسياق الذي يُختار له هذا النمط من التعبير أو ذاك.

إنّ الفنّ البلاغي واسع رحب لا تحيط به التحديدات التي وضعها البلاغيون مهما تعددت، وإن كانت مفيدة من الناحية المنهجية في دراسة هذا الفن. فـ "ليس من المقبول أن تُغفل طاقات هذه الفنون وقدراتها على حمل ما تحمله من هذا البحر اللّجّي، وهذا الموج المائج، وهذا الحشد الحاشد؛ لأنّ القدرات هي جوهر اللغة. وكل فنّ بلاغي – صغيراً كان أو كبيراً – هو وسيلة من وسائل اللغة التي تعين على بيان معنى من المعاني، لا يمكن لفن آخر أن ينهض به. ففي التشبيه شيء ليس في الاستعارة، وفي الجناس شيء ليس في السجع، ولو وُجد في اللغة طريقان يؤدّيان معنى واحداً لا يختلف لكان الثاني منهما عبثاً، وقد اتفق العلماء على خلوّ اللغة من العبث. وتبقى قدرات الناس متفاوتة في ثراء هذه المعاني، وفي القدرة على الإبانة عنها.." (168)

المعنى البلاغي وفكرة العدول عن الأصل:

تخترق البلاغة حدود اللغة وتتعدّى قانونها النحوي بتجاوزها أحادية المدلول لكل دالٍّ إلى تعدد المدلولات للدالّ الواحد. وهذا " ما عبّر عنه الأسلوبيون بـ (الانزياح). فتصبح اللغة لا مجرد وسيلة بل غاية في ذاتها. إنّ جلّ علماء الأسلوب ومنظّري الأدب يوظفون نظرية (الانزياح) عند الحديث عن خصائص النص غير العادي، سواء كان الانزياح عندهم إحصائياً أو معنوياً دلالياً أو نحوياً تركيبياً، بما في ذلك (البنى القاهرة) كالوزن والقافية." (169)

ولم تغب فكرة ما يسمى بـ (الانزياح) لدى بعض المحدثين عن النحاة والبلاغيين، إلاّ أنهم استعملوا لهذه الظاهرة مصطلحات أخرى مثل (العدول) و (مخالفة الأصل) وهي مصطلحات أحسن دلالة وأوفى بالغرض في نظرنا من المصطلحات المترجمة عن التراث الغربي. لأنّ تلك المصطلحات العربية مستمدة من أصول أخرى في الدراسات النحوية والبلاغية، إذ نجد فكرة (العدول) وفكرة (مخالفة الأصل) متكررتين في كثير من المسائل النحوية والبلاغية التي يعالجونها. وهذا ما أشار إليه أستاذنا الدكتور عبد الحكيم راضي الذي لاحظ أنّ معرفتهم بالأصل هي ما " شكّل درجة وعيهم بالمستوى العدولي، إذ لا عدول إلاّ عن أصل، وهو ما تكشف عنه تصريحاتهم بوجود ما سموه (أصل الكلام) أو (أصل معنى الكلام ومرتبته الأولى) أو (معنى الكلام وحقيقته)." (170)

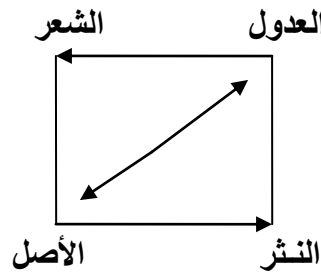
وإذا كانت وجهة النحاة أن يحتكموا إلى ما هو أصل في اللغة، بحكم مهمّتهم النحوية المتمثلة في البحث في إطار النظام اللغوي، ووضع قواعد وقوانين وأحكاماً له من أجل ضبطه والمحافظة على

الصوتيات حولية أكاديمية محكمة متخصصة العدد الثامن

سلامة اللسان العربي وبقائه ونفائه، فإن ذلك لا يعني أنهم لم يصلوا إلى مستوى اللغة الفنية التي يكون فيها العدول عن الأصل.

أمّا البلاغيون فلم يكن همّهم تقعيد القواعد وسنّ الأحكام، ولم تكن وجهتهم كوجهة النحاة، وإنما كانوا يهتمون بجانب آخر من النظام اللغوي، ألا وهو الجانب الفني الإبداعي، فكانوا يبحثون في جماليات البلاغة العربية من خلال تناولهم لكثير من القضايا الفنية كما نجد ذلك في مدارسهم لنصوص القرآن الكريم أو الشعر العربي، وكشفهم لما وراء التراكيب من القضايا الدلالية والأسرار الجمالية الكامنة في التراكيب، متجاوزين أحياناً نظم اللغة وما فيها من أطراد في ترتيب أجزاء الكلام وأحكامها، لأن المبدع إذا كان " يلجأ إلى تطبيق هذه النظم في شكل كلام أدبي فإنه لا يحافظ على هذا الأطراد، وإنما تحكّمه سياقات الكلام فيتخلّى عن الرتب المحفوظة إلى انحرافات أو تكراريات أو منبهات أسلوبية تبدو في شكل دقات تعبيرية لها طبيعة مختلفة عن النظام المطرد." (171)

وجدير بالملاحظة أنّ العدول عن الأصل في التراكيب - مع ما بينها من علاقات على أساس من هذا العدول - هو الذي يطبع النص بطابع الأدبية. ولكي يكون كذلك ينبغي أن لا يخلو من المزايا الفنية الناشئة عن التصرف في تعليق أجزاء الكلام على نحو معين داخل التراكيب. وذلك هو المعنى البلاغي الفني الذي لا يتكشف إلا من وراء هذا التصرف متجاوزاً بذلك حدود المعيار الذي يوجد على الطرف المقابل للعدول الذي يسمّى في الدراسات النقدية المعاصرة بـ (الانزياح) كما ذكرنا. ويجعل جون كوهن هذا المعيار أكثر تداولاً في النثر منه في الشعر، إذ " نجده عند الكاتب الذي هو أقل اهتماماً بالأغراض الجمالية، وإن وُجد الانزياح في لغته فهو قليل جداً... ويمكن إذاً أن نشخص الأسلوب بخط مستقيم يمثل طرفاه قطبين: القطب النثري الخالي من الانزياح، والقطب الشعري الذي يصل فيه الانزياح إلى أقصى درجة. ويتوزع بينهما مختلف أنماط اللغة المستعملة فعلياً. وتقع القصيدة قرب الطرف الأقصى، كما تقع لغة العلماء بدون شك قرب القطب الآخر. وليس الانزياح فيها منعدماً، ولكنه يدنو من الصفر.." (172) ويمكن أن نمثل للعلاقة بين الأصل والعدول عنه، ومستويات ذلك في النثر والشعر بهذا المخطط الذي اقترحنه، وسميناه: (مربع الأصل والعدول في النثر والشعر. وذلك من خلال تقابل ثنائيتين، على النحو الآتي:



فهذا المربع يضم ثنائيتين متقابلتين هما: الأصل والعدول من جهة، والنثر والشعر من جهة أخرى. ويمكن أن نوضح العلاقة بين هاتين الثنائيتين بحسب اتجاه السهم الذي يدل اتجاهه من إحدى الثنائيتين إلى الثانية من الجهة الأخرى على قوة وجود الطرف الأول (حيث جهة الانطلاق) وكثرة

استعماله في الطرف الثاني (حيث جهة الوصول). فحيث يوجد السهم توجد علاقة قوية بين الطرفين؛ وحيث لا وجود للسهم يقلّ وجود هذه العلاقة بينهما. وهذا تفسيرٌ لكثرة استعمال العدول في الشعر، على قلة وجوده في النثر؛ مقابل كثرة استعمال الأصل في النثر، على قلة وجوده في الشعر. فإنّ وُجِدت علاقات عكسية، بأنّ يكثر العدول في النثر ويقلّ في الشعر؛ وفي مقابل ذلك يكثر الأصل في الشعر ويقلّ في النثر، فإنّ ذلك لا يتعدّى حدوداً معلومة. فإن غلبت هذه الظاهرة العكسية، فإنّ ذلك يؤدّي إلى الاختلال في طبيعة كل منهما، إذ يتجاوز النثر بكثرة العدول حدود الوضوح إلى الإبهام والغموض، وهو ما يعطل عملية التفاهم في التخاطب؛ بينما ينزل الشعر بكثرة الأصل فيه إلى ما المراتب الدنيا من الجودة ويغيب الأداء الفني، فيفقد النص أدبيته ويخلو من الطابع الجمالي الذوقي الذي هو أبرز سماته.

وفكرة الأصل أو المعيار هذه تمثل المستوى الأول من مستويات المعنى، كما أشرنا فيما سبق، وهذا يشمل المعنى المعجمي والمعنى النحوي. أمّا فكرة العدول فتمثل المستوى الثاني من مستويات المعنى، وما هو إلّا المعنى البلاغي وما يحمله من أبعاد دلالية.

إنّ التعلّق الحاصل بين الكلمات، ذلك الذي بنى عليه الجرجاني فكرته في النظم، يمكن أن ينتج عنه معانٍ متعددة. فبعد القيام بالاختيار على المستوى الأول (النمطي) يأتي الاختيار على المستوى الثاني (الفني). ولا يكون هذا الاختيار عبثاً أو عملاً تلقائياً، وإنما تحكمه أغراض ومقاصد، حتى وإن لم يبدُ لنا ذلك جلياً، لأنّه يكاد يكون من طبيعة اللغة. ونستطيع أن نقول بأنّ متقدّمي الباحثين رأوا أنّ من الممكن البحث في كل نظام لغوي يوصف لأول وهلة بأنه من قبيل العرف السائد أو العادات اللغوية المتبعة، أي أنّ في كل ما نقول من كلام عادي توجد بذور الفن. لكنّ هذه البذور يجب أن نلاحظ صلتها الشديدة بما نسميه باسم النحو. فالدراسة النحوية في مجال الشعر متميزة بالضرورة عن الدراسة النحوية في مجالات أخرى. ومن هنا يجب أن نلاحظ أنه في داخل كل لغة يوجد أكثر من نحو. وكذلك يمكن في بنية العبارة نفسها احتمالات نحوية، والاحتمالات النحوية تفتح الباب أمام أساليب متنوعة. وفكرة الأساليب من هذه الناحية وثيقة الصلة بالنظام النحوي الذي يمكن افتراضه. ويمكن أن ندّعي أنّ الباحثين المتقدمين فطنوا منذ وقت بعيد إلى أن النحو وثيق الصلة بكل تبصرة حقيقية، بما نسميه الخبرات الأسلوبية. وقد عاشت الخبرات الأسلوبية في عقول (الأدباء) غامضة لا ينالها الوضوح ولا يعترئها التحديد. وفي أكثر كتب النقد الأدبي عبارات تدل على انطباعات مبهمة لا تفيد شيئاً في توضيح النشاط اللغوي، حتى إذا نمت الدراسة النحوية أمكن التساؤل من خلالها عن موضوع الأساليب... (173)

ويتجلى المعنى البلاغي من خلال ما يسمّى بالأغراض البلاغية، أو المعاني المجازية للتراكيب على اختلافها: من تقديم وتأخير وتعريف وتنكير وحذف وإضمار وقصر وفصل ووصل. وكذلك أغراض الأساليب الخبرية والإنشائية على تنوعها. فعندما تخرج هذه التراكيب والأساليب عن أغراضها الأصلية ومعانيها الحقيقية إلى أغراض بلاغية ومعانٍ مجازية، تتغيّر دلالاتها ومقاصدها بالانتقال من المستويات الأولى للمعنى إلى مستويات دلالية أرحب وأوسع، يمثل المعنى البلاغي الجانب الفني الجمالي لها.

هنا، ولم يغيب عن أذهان علماء العربية الأوائل ذلك الربط بين تراكيب النحو بما تتضمنه من علاقات بين وحداتها، وما يدخل تحتها من الأغراض والمعاني. وكما فطن البلاغيون لهذه العلاقة، وأدركوا أهميتها التواصلية، كذلك " فطن كبار النحاة أيضاً إلى أنّ الخبرة بتراكيب العربية هي في

الوقت ذاته خبرة بالأغراض التي تعبّر عنها اللغة. وبعبارة ثالثة أدرك النحاة أنّ هناك التحاماً بين ما يسمّى تراكيب، وما نسمّيه باسم المعاني أو الخواطر. فالمعقولات العامة لم تكن عائقاً يعوق النحاة دون الإحساس الواضح أو المبهم بالصلة المتبادلة بين ما كان يسمى أحياناً باسم المعنى، وما يسمى باسم اللفظ. وظل إحساس النحاة قائماً بالعلاقة المتينة بين ما يسمى باسم اللغة وما يسمى باسم الأغراض أو المعاني... (174) فالتركيب إذاً ناشئة عن علاقات الوحدات اللغوية بعضها ببعض، وهو ما ينتج عنه المعنى النحوي من كل علاقة، وأمّا المعاني والأغراض فهي مقاصد المتكلم، وهي التي تمثل المعاني البلاغية..

ويمكن تقسيم المعنى البلاغي من الناحية التواصلية إلى شعبتين: إحداهما تتصل بالسامع أو القارئ عندما يقرأ كلاماً بليغاً يريد أن يقف على ما فيه من المعاني البلاغة؛ والأخرى تتصل بالمتكلم أو المنشئ عندما يتكلم أو يكتب، وهو يريد تحقيق البلاغة فيما ينشئ.

فالمعنى البلاغي بالنسبة إلى السامع هو المعنى الذي يفهم من الكلام البليغ وما يجيء عليه من خصائص معينة تتعلق بصور النظم... أمّا بالنسبة إلى المتكلم فالمعنى البلاغي يمكن فهمه على أنه المعنى النحوي إذا أصيب به موضعه، فهو يتعلق بالتعريف والتكثير والتقديم والتأخير والحذف والتكرار والإظهار والإضمار، وسائر الوجوه والفروق في الخبر والإنشاء والشرط والجزاء والحال وغيرها... (175)

وقد كانت العناية بالمعنى البلاغي سبيلاً إلى تطوّر البحث في دلالات التراكيب على مستوى أحدث النظريات اللغوية، إذ " أفادت نظرية المعنى في البلاغة العربية في فهم النحو التحويلي الذي يتولد معه المعنى في كل تركيب جديد، وتغيرت بعض المفاهيم نحو التركيب الذي اعتبره البعض قد أهمل، فاختص بالجملة وحدد بنيتها وبلور مكانة التركيب خاصة مع النحو التوليدي التحويلي". (176).

وكذلك يقوم الاختيار في مجال الدراسة الأدبية على المعنى البلاغي، فأدبية الكلام تتوقف على ما له من خاصّة تعبيرية. وما هذه الخاصّة التعبيرية إلّا بلوغه الغرض الذي سيق من أجله على الوجه الذي أريد له، بحيث يكون له ذلك التأثير الذي لا يحوزه إلّا بتلك الصفة. وهذه الأدبية القائمة على الخاصّة التعبيرية إنما تتجلى من خلال مطابقة الكلام للمناسبات والمواقف التي يقال فيها. وعلى هذا الأساس يتم اختيار خطاب دون آخر، وهذا مبدأ أسلوبيّ أشار إليه الجاحظ عندما تكلم عن المخاطب والموضوع والمعنى في معرض كلامه عن البيان. والكلام عن المخاطب والموضوع لا ينفك عن المعنى البلاغي الذي تُراعى فيه مناسبات القول وظروفه المختلفة؛ وهذا من الشروط الواجب مراعاتها في العمل الأدبي.

إنّ الأدب يقوم على الفكرة التي تتجسّد من خلال الصورة، وتتنوع هذه الصور بتنوع الأفكار، ومن ثمّ تظهر السمات الجمالية للعمل الأدبي. لكنّ هذا الأمر لا يكتمل إلّا بالنظر في أساليب التعبير والاختيارات التي تقوم عليها، ومدى المطابقة والانسجام بين الصياغة ومضمون الخطاب، وكذلك مدى مراعاة حال المخاطب الذي يوجه إليه الخطاب.

وعلى هذا الأساس لا يمكن إضفاء الأدبية والتعبيرية على النص ما لم يُنظر فيه إلى أغراض المنشئ وحالات المخاطب ومقامات الكلام وسياقاته.

وليست الصور الحسية للمعاني الناتجة عن مختلف الاختيارات هي مناط المزية وحدها، وعندها يتوقف النظر في أسرار الكلام؛ وإنما الأبعد من ذلك أن يمتد النظر إلى أسباب هذه الاختيارات وأسرارها. وهذا ما يبينه الجرجاني بقوله: "إن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي، وتأتيها بصريح بعد مكني، وأن تردّها في الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم، وثقتها به في المعرفة أحكم، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس، وعمّا يُعَلَّم بالفكر إلى ما يُعَلَّم بالاضطرار والطبع، لأنّ العَلْمَ المستفاد من طرق الحواس أو المركز فيها من جهة الطبع، وعلى حد الضرورة يُفَضَّلُ المستفاد من جهة النظر والفكرة." (177)

فالجرجاني يكشف هنا عن سرّ الانتقال من المعنى البلاغي الذي أشار إليه بالخفاء والكناية إلى المعنى الأصلي الصريح، بحيث لا يتم إدراك جماليات ذلك المعنى البلاغي إلّا بهذا الانتقال من معنى إلى آخر. ويشير أيضاً إلى العلاقة القائمة بين المعنيين: الأصلي والبلاغي، أي: المعنى الأول والمعنى الثاني.

تلك هي طبيعة المعنى في مظاهره المختلفة وتنوعاته الدلالية عند البلاغيين الذين كانت نظرتهم إلى قضايا المعنى وظروف إنتاجه نظرة شاملة راعوا فيها كل الأطراف المؤثرة في تكوينه كالمتكلم والمخاطب وشكل الخطاب ونمط التعبير والنظر في لفظه ومعناه، وما إلى ذلك من الجوانب التي تمس مسألة تشكيل المعنى. وهم يلتقون في هذا النهج مع النحاة واللغويين، غير أنهم ينفذون إلى أعماق النصوص ويقفون على دلالاتها وإحياءاتها وأسرارها الدلالية..

• الهوامش :

- 1- أبو الحسن البكيلي (حيدرة التميمي): كشف المشكل في النحو: تعليق الدكتور يحيى مراد - الطبعة الأولى- دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان (1424هـ / 2004م) ص242 - 243 (يعني بالاستخبار : الاستفهام) وهو يشير بصاحب التسعة إلى أحمد بن فارس في كتابه: الصحابي (ينظر: الصحابي في فقه اللغة و سنن العرب في كلامها ص 179)
- 2- د/ تمام حسان: الأصول: ص 344
- 3- الجاحظ : البيان والتبيين: 29/1
- 4- من مقال بعنوان: (التحليل اللغوي ونظرية المعنى عند فتنشتين) بمجلة عالم الفكر/ عدد 29 (2001م) ص 225 (عن البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق. ص39)
- 5- د/ عزام عمر الشجراوي : الفكر البلاغي عند النحويين: ص98 - 99
- 6- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز: تحقيق الدكتور ياسين الأيوبي - المكتبة العصرية - صيدا - بيروت /1 (1421هـ / 2000م) ص 272 - 273
- 7- هذا البيت لم يعرف قائله . وقد ورد في عدة مصادر. وفي البيت كنايةتان: الأولى: قوله (جبان الكلب): وهو كناية عن تعود كلبه على الضيوف من كثرة ترددهم عليه، حتى جبن ولم يغذ ينبج فيهم.. والثانية: قوله (مهزول الفصيل): وهو كناية عن إثارة ضيوفه بلبن الناقة، مما أدى إلى حرمان فصيلها من لبنها حتى اصابه الهزال..
- 8- دلائل الإعجاز: ص273
- 9- المصدر نفسه : ص275
- 10- أول من توصل إليها في العصر الحديث: (أوجدن C.K. Ogden) وريتشاردز (I.A. Richards) في سنة 1923م ضمن كتابهما المشهور (معنى المعنى) : (The meaning of the meaning) وبحثا فيه مسألة الدلالة وتطور المعنى من الناحيتين: الاجتماعية والنفسية.
- 11- د/محمد بركات حمدي أبو علي: مفهوم المعنى بين الأدب والبلاغة: دار البشير (1408هـ / 1988) ص50
- 12- الفكر البلاغي عند النحويين: ص99 - 100
- George Garnier: Linguistique et Traduction – Paradigme/13 Boulevard – 13
maréchal 14000 – Caen (1985) p: 131-132
- 14- طنطاوي محمد دراز: في أصول اللغة: مكتبة نهضة الشرق - القاهرة - مصر (1986م) ص247
- 15 - مفهوم المعنى بين الأدب والبلاغة .ص46 - 47
- 16 - المرجع نفسه : ص44
- 17- مفهوم المعنى بين الأدب والبلاغة: ص113 - 114
- 18- د/ منصور كافي: مناهج المفسرين في العصر الحديث بين النظرية والتطبيق: دار العلوم للنشر والتوزيع - عنابة - الجزائر (2006م) ص28
- 19- دلائل الإعجاز: ص 127
- 20- ديوان البحري: 149/1. والأبيات ضمن قصيدة له في مدح الفتح بن خاقان، ومطلعها قوله:
لوث بالسلام بنانا خضيبا ** ولحظاً يشوق الفؤاد الطروبا
- 21- دلائل الإعجاز: ص 130
- 22- البيت من بائية مشهورة للشاعر يمدح بها عمر بن هبيرة، ومطلعها:
جفا وُدّه فازورَ أو ملّ صاحبه ** وأزرى به أن لا يزال يعاتبه
ومنها البيت المشهور: إذا كنت في كل الأمور معاتباً ** صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
(ينظر ديوان بشار: ص43)
- 23- دلائل الإعجاز: ص388
- 24- مفهوم المعنى بين الأدب والبلاغة - ص114
- 25- بهاء الدين السبكي: عروس الأفراح (من شروح المفتاح) : ص 156
- 26- مفهوم المعنى بين الأدب والبلاغة - ص114

الصوتيات حولية أكاديمية محكمة متخصصة العدد الثامن

- 27- عروس الأفراح: ص159
28- د/ محمد محمد أبو موسى: مراجعات في الدرس البلاغي: مكتبة وهبة - القاهرة - مصر/ ط1 (1426هـ / 2005م) ص74 - 75
29- د/نور الدين السد: الأسلوبية وتحليل الخطاب- دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع- الجزائر (1997م) ص179
30- د/ عبد الحكيم راضي: نظرية اللغة في النقد العربي- مكتبة الخانجي- مصر (1980م) ص207
31- د/ محمد عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية: ص305
32- نزار التجديتي: نظرية الانزياح عند كوهن: ص47
33- د/ مصطفى ناصف: اللغة بين البلاغة والأسلوبية- النادي الأدبي الثقافي - جدة (409هـ / 1989م) ص250-251
34- اللغة بين البلاغة والأسلوبية : ص242
35- ينظر: محمد فؤاد أحمد علي الدين: مشكلة المعنى بين النحو والبلاغة - رسالة دكتوراه - جامعة القاهرة - كلية دار العلوم (1986) ص158 وما بعدها.
36- المنصف عاشور: التركيب عند ابن المقفع في مقدمات كتاب: كلية ودمنة ص 14 (عن مفهوم المعنى بين الأدب والبلاغة. ص66)
37- عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة: 121 .
